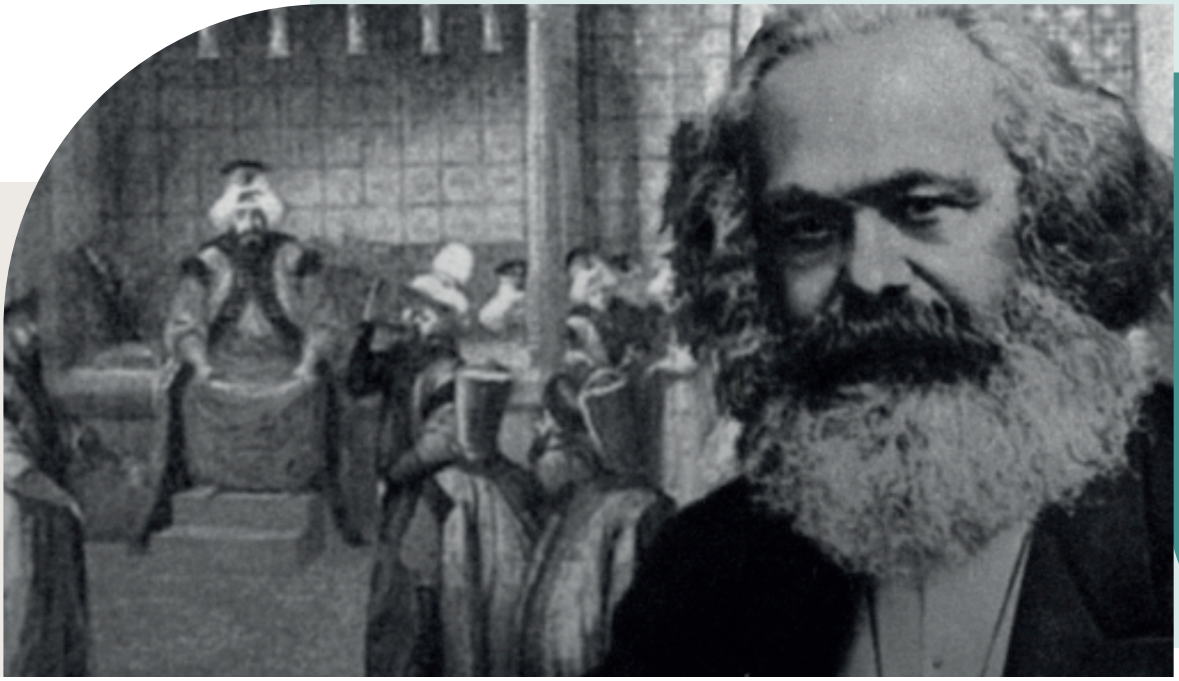

مقال

الماركسيّة الشرقية والماركسيّة الغربية.. عن الولع بالفشل والهزيمة

ترجمة: فرح عصام

إطار

الماركسيّـة الشرقية والماركسيّـة الغربية.. عن الولـــــع بالفشـــــل والهـــــــزيمة*

جونيس مانويل

مقدمة

تحاول المادة التالية، من موقع "بلاك أجندا ريبورت"، فحص واحد من عوامل كثيرة لعدم قدرة الحركات والأحزاب الاشتراكيّـة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة وعدد مـــــن دول أمريكا الجنوبية على تحويل التجارب الاشتراكية الحزبية إلى تجارب ملموسة وجذريّـة، كتلك التي وجدت في الصين على يد ماو تسي تونغ[1]، وفي الاتحاد الســـوفياتي على يد لينين[2]، عبر مقاربة الفشل من منظور تأثيرات الإرث الكاثوليكي في هذه الدول ّ ، وبحث الطرق التّـي رسم فـــيها التراث الديني ّ حدود الحركات الاشتراكية عبر أمثلة كثيرة ٍ في التاريخ.

فرح عصام

نص الترجمة

ثمة تناقض جوهري في العديد من الدراسات الماركسية التي أنتجت في الغرب؛ فكلّـما تنـــاولت هذه الدراسات ُ الماركسيّـة ّ في آسيا: الصين، أو كوريا، أو فيتنام، أو تحدثت عـــــــن الحركات الجماهيرية في بلدان إفريقيا مثل مصر، أو ليبيا، أبرزت تأثير الدين عـــــلى تلك الحركات السياسية والتكييف ّ القومي للماركسية. وعلى سبيل المثال، عندما يدرس أي باحث ماركسي الماركسيـــة الصينيّـة نجده مدفوعاً بمعالجة تأثير الكونفوشيّـة الصينية على الثقافة الصينية عمـــــوماً، والماركسية الصينية بالتحديد. كذلك، دائما ما يؤخذ بعين الاعتبار التأثير الذي حمله الإسلام على العديد من الدول الإفريقية في تحليل [تجارب] الأمم الاشتراكيّـة كالجزائر.

أمـّا عند النظر في ماركسية الدول الغربية، فنادراً ما يؤخذ بعين الاعتبار التأثير المسيحي في بناء العالم الرمزي ّ والموضوعي والنظري ّ لهذه الماركسية. يبدو الأمر كما لو أن الكونفوشيـــــــة تؤثـر في سياسات آسيا، والإسلام يؤثر في سياسات إفريقيا، أمـا في البرازيل، والولايات المتحدة، وفرنسا، والبرتغال، فلا تؤدّي المسيحية دوراً من هذا النوع في تشكيل الذاتيّـة التاريخيّـــــــة. وهذا خطأ لسبب بسيط ٍ وملموس جداً، يـشير إليه أنطونيو غرامشي[3] في عدة فقرات مـــن كتابه "رسائل السجن". (ترجمة سعيد بوكرامي/ طوى للنشر).

* جميع الهوامش التالية التي تتعرف بالشخصيات المذكورة في المادة كتبها المحرر، وليست من نص "المادة الأصلي".

1 ماو تسي تونغ (1893-1976): قائد الحزب الشيوعي الصيني ومؤسس جمهوريـــــة الصين الشعبية ورئيسها الأول من (1949-1976)، شغل أيضـــــاً منصب الأمين العام للحزب والقائد العسكري الأعلى للجيش الأحمر الصيني، وقد أسس نظريا داخليا عرف بـ "الماوية".

2 فلاديمير لينين (1870-1924): ماركسي روسي، قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية على روسيا القيصرية عام 1917.

3 أنطونيو غرامشي (1891-1937): فيلسوف وناشط ماركسي إيطالي.

إن الكنيسة الكاثوليكيّة أقدمُ المؤسسات الفاعلة في الغرب. فما من مؤسسة أخرى تدبّرت أمر البقاء حتى هذا الوقت بالتوازي مع القدرة على نشر الأفكار وإشاعتها، عبر جسمٍ[2] من الكهنة والأساقفة وعُلماء الكلام المثقّفين المنضوين تحت لواء بيروقراطية بحجم تلك التي تمتلكها الكنيسة الكاثوليكيّة. لذا فمن المستحيل الحديث بجديّة حول الماركسيّة والسياسة والذاتويّة والثقافة والحقل الرمزي في الغرب، من دون تضمين الدور الذي لعبته المسيحيّة في أي تركيبٍ اجتماعي لأيٍّ من بلدانه بصفتها عنصراً للتحليل.

وباعتقادي فإنّهُ لمن المستحيل فهم الظاهرة الموصوفة خطأ "بالشعبويّة" (مصطلحٌ أتفادى استخدامه)، لوصف هذه العلاقة بين الطبقات الشعبية وأمثال لولا دي سيلفا[4]، جيتوليو فارغاس[5]، ميغيل أرايس[6]، ليونيل بريزولا[7]، خوان بيرون[8]، فيلاسكو إيبارا[9]، هيوغو تشافيز[10]؛ من دون أن نفهم الترتيبات الأساسية للعلاقة الكاثوليكية بين القدّيسين والأتباع. قد لا يكون هذا هو التفسير الأوحد بالطبع، لكنّ هنالك مكوّناً رمزياً في البنية السياسية لهذه العلاقة. ولقد شغلتني هذه الفكرة لوقتٍ طويل، على أنّها ليست من بنات أفكاري. فقد كتب كل من دومينيكو لوسوردو ورولاند بوير عن "كيف كان الولعُ بالهزيمة واحداً من الملامح الجوهرية للماركسيّة الغربيّة، وكيف أنّ هذا الأمر اشتقاق أسيءَ فهمه عن الثقافة المسيحية".

الفخر بالنقاء

أولا، سنناقش نزعة كبيرة موجودة في الماركسية الغربية. يرسمُ بيري أندرسون فصلاً بين الماركسيتين الشرقية والغربية. والماركسيةُ الغربية في الأساس نوع من الماركسية، التي من ميّزاتها، أنها لم يحدث لها أبداً أن مارست السلطة السياسية. إنها نوع من الماركسية التي أرقت نفسها أكثر فأكثر، بقضايا فلسفية وجمالية (استطيقية). وعلى سبيل المثال، فقد انسحبت من انتقاد الاقتصاد السياسي وقضيّة الظفر بالسلطة السياسية، وأخذت المزيد والمزيد من المسافة التاريخية عن التجارب الملموسة من التحوّلات الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، والصين وفيتنام وكوبا وغيرها. تعدّ هذه الماركسية الغربية نفسها في مكانة أسمى من نظيرتها الشرقية لأنها لم تلطخ الماركسية بالتحول إلى أيدولوجية دولتيةٍ كما حدث، على سبيل المثال، في الماركسية السوفياتية، ولا سبق لها أن كانت سلطويةً، أو شمولية أو عنيفة. هذا النوع من الماركسيّة يحافظ على براءة النظرية وإن مسّ الأمرُ بحقيقة أنها لم تتحول أبداً إلى ثورةٍ في أي مكان على وجه الأرض، وهذه نقطةٌ بالغة الأهميّة. أينما نجحت ثورة اشتراكية في الغرب، مثل كوبا، نجد أنّها كانت أكثر ارتباطاً بما يُسمى الماركسية الشرقية من تلك الغربية التي أنتجتها أوروبا الغربية: الولايات المتحدة وكندا وأجزاء من أمريكا الجنوبية. هذه الماركسية فخورة جداً بنقائها، وهذا أول ملمح جوهري مشتق من المسيحية.

يشير غرامشي إلى أن الاهتمام التاريخي الرئيس للكنيسة الكاثوليكية انصبّ على أن تضبط دراسة تعاليم المسيحية وانتشارها، بحيث تحولُ دون ظهور تفسيرات مستقلة رائجة على مستوى أركانها الأساسية، وتحول دون انتشارها كذلك، وتحفظ بذلك نقاء العقيدة التاريخية. وبناءً عليه، بإمكان الكنيسة الكاثوليكية القول بأن المسيحية ديانة حب، ومساواة ومحبة الجار،

4 لولا دا سيلفا: الرئيس البرازيلي الحالي، والسابق لدورتين (2000-2010). يساري. تعرض لمحاولة انقلاب بعد تسلمه الرئاسة قبل أيام.
5 جيتوليو فارغاس (1882-1954): يساري برازيلي. تولى الرئاسة 4 مرات كان آخره 1951-1954. توفي بوصاصة في القلب. وتركه "أمه في قلب منتحراً".
6 ميغيل أرايس (1916 – 2005): جنرال وسياسي برازيلي. فشل مشروعه عدة مدنية يعيش وتأتي الوطنية وتأتي الجنرال وحكم برازيليوكو ثلاث مرات.
7 ليونيل بريزولا (2004-1922): سياسي ومناضل يساري برازيلي، وحاكم ريو دجانيرو (1982-1990).
8 خوان بيرون (1895 – 1974): رئيس يساري أرجنتيني لفترتين. تعرض للانقلاب والنفي نهاية حكمه الأول الذي استمر من (1946-1955).
9 فيلاسكو إيبارا (1893 – 1979): يساري. الرئيس الإكوادوري الخمس مليات مختلفة.
10 هيوغو تشافيز (1954-2013): يساري فنزويلي. رئيس منتخب من (1999-2013).

وتعاطف و"لا عنف"، برغم حقيقة أنها كانت سلاحاً جوهرياً في تشريع العبودية، والحـــملات الصليبية، والاستعمار، وبرغم تقارب العديد من عناصر الكنيسة الكاثوليكية مع الفاشية النازيـة والديكتاتوريات العسكرية.

ثمة اعتقاد متأصل على مدار تاريخ المسيحية بأنّ هذه العناصر لا تفسد العقيدة، وبأنها تعبيرات خاطئة عن المسيحية، أو بأنـّها حقائق معزولة عن بعضها، لا تحمل أي مرادف نظري أو سياسي، بل والأهمّ، ليس لها معنى لاهوتيّ. لذا، فحقيقة أنّ التاريخ يتناقض مع تأكيدات المـــسيحية بأنها مبنية على التعاطف والسلام لن يغير العقيدة، ولا يتحداها.

يتصرف العديد من الماركسيين[11] بهذه الطريقة، فأكبر همومهم براءة العقيدة. كلـّما تـــحدت الحقائق التاريخية عقيدتهم، أو أظهرت تعقيدات التطبيق العملي لعناصر النظرية الماركسيـــة، أنكروا بأن هذه العناصر جزء من نظرية الماركسية وعقيدتها. أحد أعظم الأمثلة على ذلك، كـــان عندما دخل الاتحاد السوفياتي المرحلة النهائية من الأزمـــــــــة؛ وبينما لاحت نهاية الاتحاد السوفياتي، أعلن الكثير من الماركسيين الغربيين هذه النهاية حدثاً عظيماً في التاريخ لأنـــه حرر الماركسية أخيراً من تلك التجربة التي وُلدت في ثورة أكتوبر (الثورة البلشفية)، والتي شوهـــت الماركسية، وحولتها إلى محض أيديولوجية دولتية. الآن، ودون الحاجة إلـــــى تفسير طبيعة التقييدات التي فرضها الاتحاد السوفياتي على الماركسية، بإمكان الماركسية أخيراً أن تتحرر وتصل ذروة الانعتاق التام.

التوق إلى الألم والهزيمة

عامل آخر منتشر جداً في اليسار الغربي هو التعامل مع المعاناة والفقر المدقع بوصفها جـــوانب أفضليـــة. إنه لمن الشائع جدّاً في ثقافة اليسار الغربي دعم الضحايا والفواجع. الجميع اليـــــوم يحب سيلفادور ألليندي.[11] لماذا؟ سلفادور ألليندي ضحية، إنه شهيد، لقد اغتيل في انقلاب عسكري نفذه بينوشيه. عندما كان هوغو تشافيز على قيد الحياة، تخلـّت عنه شرائح واسعة في اليسار الغربي. لو أنه تعرّض للقتل على سبيل المثال، في محاولة انقلاب عام 2002، لأحبـــتهُ الغالبية العظمى في اليسار الغربي اليوم بوصفه رمزاً للمعاناة والشهادة. لكن بما أنـّه استمر بـــمزاولة السلطة قائداً للعملية السياسية التي، بحكم الضرورة، حملت تناقضات عديدةً، فقد تخلى عـــنهُ المزيد والمزيد من الناس مع مرور الوقت -فضلاً عما حدث لمادورو-.[12]

هذه الشرائح ذاتها التي احتفت ودعمت فكرة ألليندي لأنه دافع عن الديمقراطية الاشتراكيـة لا ترى، أو أنها لا تريد أن ترى، بأن ألليندي قد حكم كلّياً تقريباً عبر المراسيم الرئاسية. فـــي ذلك الوقت، كانت في الدستور التشيلي ميكانيزمية مكّنت السلطة التنفيذيـــــــة من الحكم عبر المراسيم التي لم تكن هنـــــاك حاجة لموافقة البرلمان أو حتى المحكمة العليا عليها. لذا فقد تمكن ألليندي من سنّ القوانين التي تخطت البرلمان والمحكمة العليا. بما أن ألليندي لم تـــكن لديه غالبية الأصوات في البرلمان وذاق الأمرّين من تلك المعارضة البرجوازية، فقد حكم بشكـل رئيسٍ عبر المراسيم طوال مدة تفويضه. هذا السلوك اليوم مسوغ كاف لوصم أي زعـــــيم

11 سيلفادور ألليندي (1908-1973) يساري رئيس جمهورية تشيلي منذ 1970 وحتى 1973. قتل في انقلاب عسكري خططت له CIA.
12 نيكولاس مادورو (1962-): الرئيس الحالي لفنزويلا خلفاً لهوغو تشافيز

يمارسه بأنه سلطوي، أو بمقارنته بترمب، أو بولسانارو[13]. لو كان ألليندي حيّاً اليوم لتعرض للانتقاد أيضاً، لكنه قُتل.

مثال آخر على هذا الأمر هو حالة تشي جيفارا[14] وفيدل كاسترو[15]. بالنسبة إلى معظم اليساريين الغربيين، يمثل تشي جيفارا ثائراً حالماً، على أنه لم يكن كذلك في الحياة الحقيقية، لكنهم شيّدوا حوله هذه الهالة. لقد قضى تشي جيفارا مضحياً بنفسه في أدغال بوليفيا، لذا يعد الآن رمزاً للتضحية ومرارة الهزيمة. بينما ظلّ فيدل في كوبا قائداً للثورة الكوبية بما حملته من تناقضات، ينظر إليه اليوم بوصفه بيروقراطياً، فاقداً لأي سحر أو جاذبية في أوساط العديد من أبناء اليسار الغربي إن لم يكن غالبيّتهم. أمّا تشي جيفارا فظل رمزاً أبدياً للمقاومة، للحلم، أو الطوباوية التي لم تتحقق بسبب الموت.

مثال آخر على هذا التباين هو كيف تعامل كوريا الشمالية مقارنة بفلسطين. لقد انخرط كلا البلدين بالنضال ذاته - ألا وهو النضال ضد الاستعمار من أجل الاستقلال الوطني - في حالة كوريا، كان النضال من منظور اشتراكي. نجحت كوريا، بالرغم من أنها بلد طحنته الإمبريالية.

لديها اقتصاد قوي نسبيا، مع مستوى عالٍ إلى حد ما من التصنيع، جيش قومي قوي مع القدرة على تصنيع أسلحة نووية. لذا فكوريا ليست بلداً أعزل. أما الفلسطينيّون فشعبٌ مضطهد، في حالة من العوز، ليس لديهم اقتصاد قومي لأنه ليست لديهم دولة قومية، ليس لديهم جيش عسكري أو قوة اقتصادية. بالتبعية، فلسطين تجسيد تام لاستعارة داوود وجالوت، غير أن هذا الداوود ليست لديه أي فرصة لهزيمة جالوت في صراع سياسي أو عسكري، بالتالي، فالجميع تقريباً في اليسار الدولي تروقه فلسطين. ينتشي الناس بالنظر إلى تلك الصور -التي لا أعتقد أنها رائعة جداً- لطفل أو شاب يستخدم المقلاع لإلقاء حجر على الدبابة. حسناً، إنه مثال واضح وصريح على البطولة لكنه أيضاً رمز للوحشية والبربرية. هذا شعب لا يملك القدرة على الدفاع عن نفسه في مواجهة قوة استعمارية مسلحّة حتى النخاع. ليست لديهم القدرة ذاتها على المقاومة، لكنّ هذا يضفي عليه طابعاً رومانسياً. هذه الوضعية من القمع والمعاناة والشهادة تروق لليسار الغربي.

حالة أخرى نعرفها جيدا هي حالة فيتنام. الجميع دعم فيتنام عندما تعرضت للهجوم، والقصف والتدمير على مدار 30 عاماً. لقد هزمت فيتنام اليابان في الحرب العالمية الثانية، ثم تعين عليها أن تواجه فرنسا، ومن ثمّ الولايات المتحدة. في الفترة ما بين 1945-1975 أمضت البلاد 30 عاماً متواصلةً دون القدرة على بناء مستشفىً أو مدرسةٍ لأنّ قذيفةً من فرنسا أو الولايات المتحدة ستهوي وتدمّرها. عندما تمكنت البلاد أخيراً من هزيمة كل أشكال القوى الاستعمارية والنيوليبرالية وتسنت لها الفرصة للتخطيط لبناء الطرق السريعة والأنظمة الكهربائية والمدارس والجامعات دون سقوط القذائف في اليوم التالي وتدمير كل شيء كان من الممكن صنعه، تخلت غالبية شرائح اليسار الغربي عن البلاد.

13 جايير بولسونارو (1955-) يعني "بارئيل ذو خلفية عسكرية، الرئيس السابق للبرازيل.
14 تشي جيفارا (1928-1967)، طبيب وكاتب وصانع أرجنتيني فنان، في الثورة الكوبية والثورة البوليفية. ومعد "رمز" الثورية اليسارية.
15 فيدل كاسترو (1926-1916) رئيس وزراء ثم رئيس كوبا من (1959-2006). تعرّف بنده لاحقا أمريكي على خلفية توجهاتها الشيوعية.

لقد فقدت سحرها، فقدت جاذبيتها. ثمة افتتان بالهزيمة لدى اليسار الغربي. إنهـــا فكرة بـأن الهزيمة شيء سحري".

مثال واضح على هذا الافتتان يتمثل في حالة الانقلاب في بوليفيا. عندما كتب سلافوي جيجـك، المفكر النقدي الشهير، مقالة بعنوان "بوليفيا..تشريح الانقلاب"، ما الذي كان فـــي محور اهتمامه؟ أن يُظهر أن إيفو موراليس[16] رجل ديمقراطي، بأن إيفو موراليس لم يقتل أو يـسجن الخونة خلال محاولات الانقلاب السابقة، وبأن هؤلاء الناس أنفسهم قد نفذوا الانقلاب ضده. بكلمات أخرى، جيجك يشيد بالعنصر ذاته الذي أدى لهزيمة الثورة في بوليفيا بوصفه دليلا عـلى السمو الأخلاقي.

الخلاص السماوي.. خارج التاريخ

أما العنصر الثالث الشائع في اليسار الغربي فيأتي من التصور المسيحي بأن الخلاص ليس نتاج أفعال المرء، وإنما محض قرار سماوي. إنـه التصور بأنـك، رغم عملك للقيام بالتصرفات الصحيحة، ولأن تكون شخصاً جيداً، فإن خلاصك قرار إلهي محض. أما الجهود الذاتية المتصلـة بأساس الماركسية، ألا وهي السيطرة على السلطة السياسية (كما قال لينين: "كل شيء فيما عـدا السيطرة السياسية محض وهم") فقد نُزعت عنها القيمة بسبب هذا التأثير من الثقافـة المسيحية، مع أن غالبية المثقفين المسيحيين ملحدون.

وبدلاً من ذلك، فإن القيمة العليا تصبح وضعية أبدية من المقاومة التي يستقي منها المـرء إحساساً بالفخر. حينما خسر بيرني ساندرز[17] الانتخابات للمرة الثانية، قال أستاذ ماركسي مرمـوق من جامعة ساوباولو في حسابه على فيسبوك: "لقد حاربنا كما لم نحارب من قبل، وخسـرنا كالمعتاد، لكن النضال مستمر. الآن، ألكسندرا كورتيز هي مستقبل الاشتراكية فـي الولايات المتحدة". إن المنطق الماركسي في التفكير في الصراعات السياسية كافة مـن منطلقات الاستراتيجية، والتكتيكات، وسياسات التحالف والبرامج، وتحليل الأخطاء نقدياً من أجل تفاديها في المستقبل، وضرب العدو سياسيا أو حتى عسكريا من أجل الظفر بالسلطة؛ منطق اختـفى ببساطة، وتم استبدال حركة أبدية من المقاومة به، كما لو أنها دليل على الاصطفاء الإلهـي. هذا المنطق الذي ينبغي أن يكون جوهر السياسة، ومنطق الاستراتيجيا، قد فقد قيمتـه مع تحول المقاومة إلى غاية في ذاتها.

خاتمة .. في تجاوز التأثير المسيحي

سوية، تخلق هذه العناصر الثلاثة الموصوفة نوعاً من النشوة النرجسية بالهزيمة والنقـاء. تفخر الذات في النأي بنفسها عن الحركة المادية التاريخية لاشتراكية الحركة العاملة وثـورات التحرير. إنها تستمد الفخر من الانفصال السياسي أو النظري عن أي ثورات حدثت فـي الصين وروسيا وكوريا وفيتنام والجزائر والموزمبيق وأنجولا. إنها عوضاً عن ذلك، فخـورة بالنقاء المفتـرض بحيث أن نظريتها لم تتلوث بعثرات ممارسة السلطة، بمتناقضات العمليات التاريخية.

16 إيفو موراليس (1959 -) سياسي، رئيس بوليفيا السابق، استقال من منصبه في 2019 بعد أشهر من التجاذب إثر احتجاجات واسعة، واتهامات بدعم حكومي لها.
17 بيرني ساندرز (1941 -) سياسي اشتراكي أمريكي ينتمي في الحزب الديمقراطي، خسر في الانتخابات التمهيدية للرئاسة عن الحزب الديمقراطي في 2016 و 2020.